٣٧ أبو بكر الطرطوشى فقيه أندلسى عرف قيمة العقل

حين دخل الإسلام الأندلس أثَّر تأثيراً عظيماً فى أهلها، فنقلهم من ظلام وجهالة العصور الوسطى إلى مشارف مدنية وحضارة العصر الحديث، ولم يقتصر تأثير الإسلام على المنطقة التى وجد بها وهى الأندلس، وإنما امتد كذلك إلى غيره من البلاد الأوربية، مثل إيطاليا، وفرنسا، فى أوربا وغيرها. كذلك لم يقتصر تأثيره فى الأندلس على علوم بعينها كالفلسفة والفيزياء والرياضيات والآداب والفنون وما يتفرع عن هذه العلوم. وإنما امتد إلى علوم أخرى دينية كالتصوف، حيث كان للعلماء المسلمين فى الأندلس أثر فى غيرهم من الأوربيين، وعلى سبيل المثال نجد ابن عباد الرندى أحد أتباع الطريقة الشاذلية التى أسسها أبو الحسن الشاذلى له تأثير مباشر على الصوفى الأسبانى يوحنا الصليبى، وأنه للمتصوف العظيم محيى الدين بن عربى تأثيره المباشر فى تصورات الإيطالى دانتى التى تضمنتها رائعته الخالدة «الكوميديا الإلهية»، وغيرها من تأثيرات دينية، وهذا يعنى أن الإسلام كان فى تطور دائم فى كل جوانب المعرفة الإنسانية، مادية كانت أو روحية.. ومن العلماء الذين اشتهرت بهم الأندلس ابن حزم، وابن ماجه، وكالباجى وتبعهم علماء يتقدمهم إمامنا أبو بكر الطرطوشى المدفون بالإسكندرية».

إذن فإمامنا هذه المرة قادم من الأندلس، وبالتحديد من مدينة طرطوشة التى تقع على سفح الجبل قريباً من بلنسية وقرطبة ليدفن بالإسكندرية بعد أن قضى حياة حافلة بالعلم والفضل والفقه، ناقلا إلى المشرق ما تلقاه من علم عن ابن حزم والباجى شيخ علماء الأندلس وغيرهم من العلماء الذين برزوا فى الأندلس الإسلامية.

لكن قبل وصول الإمام الطرطوشى إلى الإسكندرية واستقراره بها حتى آخر أيامه تخللت حياته أحداث مهمة، تبدأ منذ أن تلقى العلم فى المسجد الكبير بمدينة

طرطوشة بالأندلس على أيدى عدد من المعلمين هناك الذين اكتشفوا فيه استعداداً مغايراً لغيره فى تقبل العلوم.

ولم تشبع مدينة طرطوشة وشيوخها وعلمائها نهم إمامنا إلى المعرفة الدينية، فتركها راحلا إلى أكبر مدن الأندلس وقتئذ «سرقسطة»، حيث التقى بعالمها الكبير القاضى أبى الوليد الباجى، وعنه استطاع أن يجمع علمه الواسع كأكبر علماء الأندلس، كذلك علم ابن حزم الذى وضعه من قبل فى قلب الباجى ليكون خليفة من بعده فى مناقشة الموضوعات الدينية والعلمية التى تنشأ وتتجدد بين حين وآخر، فكان أبو بكر الطرطوشى خير تلميذ للباجى وأستاذه ابن حزم الأندلسى.

ولعل إقبال الإمام الطرطوشى على العلم والتفقه فيه نابع من أصالته العربية، حيث تذكر بعض المصادر التاريخية أن الإمام أبا بكر الطرطوشى المشهور فى أوربا بأبى رندقة، ينتهى نسبه إلى قريش فى عائلة فهد القرشى، المعروفة بأصالتها فى العلم والأدب والنسب بين القبائل.

وأما اسم أبى رندقة الذى اشتهر به خاصة فى المصادر الأوربية فقد خلعه عليه الأوربيون أنفسهم، وذلك بعد أن اتسع علمه حتى عمَّ أرجاء البلاد. فأراد الأوربيون أن ينسبوه إليهم، حتى يقل أتباعه من جرَّاء التشكيك فى نسبه، لكن هذا الاسم الذى خلعه عليه الأوربيون لا دخل له بهذا الإمام الجليل، كما يؤكد ذلك بعض الروايات والكتابات الحديثة، وفى مقدمتها كتابات الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها مساجد مصر، والدكتور جمال الشيال فى كتابه أعلام الإسكندرية، الذى يؤكد فيه عروبة وعلمية أبى بكر الطرطوشى.

يقول الدكتور الشيال: «إن والد أبى بكر الطرطوشى كان عالماً متفقهاً فى الدين، ولذلك وجَّه ابنه أبا بكر هذه الوجهة العلمية الدينية التى أفادته فيما بعد». معنى هذا أن العلم فى الدين والفقه وكان متأصلا متوارثاً أصيلا فيه وليس دخيلا.

وحين نضج علمه واكتمل اتجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج والاستقرار بمكة المكرمة، والوقوف على ما تركه السلف الصالح من آثار علمية وفقهية، وهناك التقى بجلة من العلماء، فى مقدمتهم الإمام أبو إسحاق الشيرازى وغيره من علماء

التصوف. وقد سمع كثيراً من الشعر من شيوخه، ورواه عنهم فيما بعد فى كتابه «سراج الملوك» مما يؤكد أنه كان يتمتع بحاسة نقدية أدبية عالية المستوى.

وغادر بغداد إلى الشام بعد أن كون لنفسه فلسفة خاصة به تقوم على الزهد والسعى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقضى الفترة التى عاشها فى الشام يلقى على الناس علماً هو خلاصة ما وصل إليه علماء المغرب حيث الأندلس. وعلماء المشرق حيث العراق، وكان لعلمه مذاق خاص، الأمرالذى أكثر من حوله الأتباع والمريدين، أولئك الذين كانوا يفدون إليه رغبة فى معرفة أمور دينهم ودنياهم، وظل هكذا بينهم عالماً وفقيهاً متنوراً حتى توجه إلى الإسكندرية بمصر، التى كانت ملتقى المغاربة المتوجهين إلى الحج والعائدين منه. فهى فى الطريق إلى الشمال الإفريقى وبلاد الأندلس.

لكن فى طريقه من الشام إلى الإسكندرية توقف برشيد تحت إلحاح أهلها غير أن أهل الإسكندرية كوّنُوا وفداً من علمائهم وأعيانهم وفقهائهم ليتوجه إلى رشيد.. ويلتقى الإمام الطرطوشى بهذا الوفد الذى يطلب منه التوجه إلى الإسكندرية، فيقبل، ويبدأ الدرس يدرس وينشر العلم على مذهب الإمام مالك، إلى جانب ما كان قد استفاده من علماء الأندلس وفقهائهم.

وقد أتاحت له حياة الاستقرار التى عاشها بالإسكندرية، وترحيب واستقبال أهلها له الفرصة للقراءة والتأليف، حتى قدم للمكتبة الإسلامية اثنين وعشرين مؤلفاً فى التفسير والفقه وعلم السياسة وفى الحكم وإدارة المجتمع والوقوف على مشاكله وأهمها كتاب «سراج الملوك».

وفى هذه الكتابات والأحاديث نلمح آراء أستاذه بالأندلس أبى الوليد الباجى.. تلك التى أودعها فى قلبه أستاذه العظيم ابن حزم.. كما كان يردد دائماً.. ومن هذه الآراء ما كان يردده فى مجالسه فى فضل العلم على حامله، حيث يرى أنه لو لم يكن للعلم فضيلة سوى أن أهل الجهل يهابون صاحبه ويحترمونه، وأن العلماء يقدرونه ويحترمونه. لكفى هذا سبباً إلى السعى وراء العلم وطلبه، فكيف إذن بباقى فضائله فى الدنيا والآخرة؟

ولو تدبر العالم فى كل ساعاته ماذا كفاه العلم من المذلة والغفلة، من الهم

بغيبة الحقيقة، ومن الفرح بكشفها ـ عن طريق العلم ـ لضاعف من حمد الله عز وجل وشكرانه على منحه فضل العلم، ولطلب أن يهبه المزيد منه.

وقال: إن الذى يبخل على الناس بعلمه أشد وأقسى من الذى يبخل عنهم بماله، فالمال يمكن تحقيقه بأى الوسائل، أما العلم فلابد لتحقيقه بوسيلة الفتح الربانى الذى يفتح به الله على عبده، وبالعلم وحده تقترب من الخالق سبحانه وتعالى، ومنه ما يعينك على الوصول إلى رضاه. ومن أراد سعادة الدنيا وخير الآخرة فليقتدى بهَدْى محمد ﷺ فى علمه واحترامه وتقديره لأهل العلم. وطلبه للعلم حتى وإن كان فى الصين.

وعن فضل العقل يحدثنا الإمام الطرطوشى فيقول: ليس هناك فضل يهبه المولى لعبده أعز وأجل وأكرم من فضل العقل، فصاحب العقل هو الذى يعيش فى نعيم دائم، لأنه يستطيع أن يعامل الناس على قدر عقولهم. كما أمرنا رسول الله ﷺ بتوجيه إلهى حيث قال: «أُمرت أن أعامل الناس بقدر عقولهم». والعاقل هو الذى لا يغتبط بصفات تفوقه على الحيوانات والجمادات، وإنما يغتبط بتقدمه فى الفضيلة التى ميزه الله تعالى بها عن هذه الحيوانات والجمادات، وهى التمييز الذى به يمكن أن يقارب الملائكة.. فمن قوى تمييزه، واتسع علمه، وحسن عمله فليسعد ويغتبط. حيث لا يتقدمه إلا الملائكة، وخيار الناس. وقول الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[1] لأن نهى النفس عن الهوى هو ردعها ومنعها عن كل ما يغضب الله. وقول رسول الله ﷺ: «أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه» جامعان لكل فضيلة. لأن فى نهيه عن الغضب ردع النفس عن هواها، وفى أمره عليه السلام أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ردع النفس عن أمور السوء، وأولها الأنانية وحب الذات.

وهكذا كان الإمام أبو بكر الطرطوشى فى كتاباته وأحاديثه.. حتى توفى بالإسكندرية عام ٥٢٠ ليدفن هناك فى مسجد بباب البحر كما يقول المقريزى فى خططه.

* * *

(١) النازعات ـ الآيتان: ٤٠، ٤١.